

محاسن النصوص الأدبية انعكاس لتمازج النحو والبلاغة -

قراءة في مقالات البشير الإبراهيمي ووحى القلم للرافعي.

د . بوعلام طهراوي *

الملخص:

للنحو والبلاغة مقترنين متمازجين دور جليّ في صياغة النصوص الأدبية الراقية؛ ذلك أنّ عقدة الأزمة ليست في اللغة ذاتها، بقدر ما هي مهارة في حسن المزوجة بين هذين الفنين ضمن قالب من قوالب التأليف. فاللغة ليست قواعد صنعة وقوالب صماء تضني معلمها أو متعلمها أو الكاتب بها حفظاً أو تلقيناً أو ممارسة، دون أن يكتسب هذا المتعلم ذوق العربية ومنطقها وبيانها، وقد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويعيبه مع ذلك أن يملك هذه اللغة أو أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه.

إنّ مؤلفي النصوص الأدبية الراقية قديماً أو حديثاً لم يبلغوا الذي بلغوه إلا بحسن التأليف بين فني البلاغة والنحو بعيداً عن قواعد الصنعة والإجراءات التلقينية والقوالب الصماء. إنه لا بدّ لكل كلام يستحسن، ولفظ يستجاد من أن يكون للاستحسان جهة معلومة وعلّة معلولة معقولة يحددها تناسق الدلالة وتلاقي المعاني، على الوجه الذي اقتضاه العقل.. وهو الأمر الذي سنتولى تحليله ودراسته في المداخلة على ضوء الآراء النظرية التي أيدت هذا الطرح وعلى ضوء الأعمال التطبيقية التي جسدت عملياً هذه الرؤية.

ويتناول موضوعنا عينات من النصوص الأدبية الحديثة التي تزوج فيها بإحكام جمال السبك اللغوي الشكلي من جهة، ودقة الدلالات والمعاني المنبثقة عن هذا السبك من جهة ثانية.

العينة:

☆ جامعة البويرة

- 1 - مصطفى صادق الرافعي من خلال وحي القلم.
- 2 - البشير الإبراهيمي من خلال مقالاته في عيون البصائر.

مقدمة:

النحو والبلاغة كشقيقتين ولدا من رحم واحدة هي العربية، نشأ وترعرعا في بيئة واحدة هي البيئة العربية الفصيحة، لا يكاد يفارق أحدهما الآخر إلا مكرها، واستمرت هذه الصحبة والتلازم سنين عديدة، وتجلت معالم هذا التلازم في ما صنف في القرون الأربعة الأولى من كتب في النحو خصوصا وعلوم اللغة عموما، حيث كان الدرس النحوي لا ينفك عن دراسة الأوجه الدلالية التي تترتب عن هذه الأساليب النحوية المختلفة.

ثم جاءت مرحلة وقع فيها انفصال بين علمي النحو والبلاغة بعد القرن الرابع، حينما صير بعضهم العلمين قوالب جامدة، وقوانين جافة، لا يرام أحد العلمين إلا للتباري والمغالبة. ويعد الرماني أول من فتح هذا الباب في علم النحو، والسكاكي أول من فتح ذات الباب في البلاغة. ولعلّ عبارة أبي علي الفارسي تفسر ما ذكرناه: = إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء+.

وستتجاوز أوضاع النحو والبلاغة عبر القرون الخالية معرضين عن التجاذب الذي حصل بينهما لنحط الرحال في العصر الحديث ونسلط الضوء على رائدين من رواد البيان العربي في القرن الماضي وهما الشيخ البشير الإبراهيمي بالجزائر ومصطفى صادق الرافعي بمصر.

وكلامنا عن العلاقة بين النحو والبلاغة لا يجرنا إلى الخوض في البرهنة على درجة القرابة بين الفئتين، بل نرى أنّ التأمّل في ما كتبه رواد الأدب الرفيع قديما وحديثا خير ما يمثل هذه العلاقة الحميمة بين النحو والبلاغة، فلا قيمة لأحدهما إلا بوجود الطرف الآخر. وجاء اختيارنا لكتابات الرافعي ومقالات الإبراهيمي كنموذجين للدراسة لاعتبارات موضوعية أهمها:

أ - كلاهما متشرب بالقرآن الكريم وأساليبه وبيانه، وهذا التشرب نابع من طبيعة التكوين الذي تلقاه كلّ منهما في بيته ومحيطه من الصبا إلى النضج.

ب - عاش الرجلان فترة زمنية مشتركة من حياتهما (ولد الرافعي سنة 1880 وولد الإبراهيمي سنة 1889 ومات الأول سنة 1937 واستمر العمر بالإبراهيمي إلى الستينيات).

ج - كلاهما عاش فترة الاستعمار الذي هيمن على كل الدول العربية، وما خلفه من آثار الخراب والدمار والتخلف على العقل والدين والمجتمع والثروات..

أولا - الرافعي من خلال «وحي القلم» صورة مثلى في التآلف بين النحو والبلاغة:

ابتدأ مصطفى صادق الرافعي حياته الأدبية شاعرا ثم أكملها ناثرا، فجاءت شخصيته غنية خليقة بالبحث والدرس، واجتمعت في كتاباته خصائص النثر وخصائص الشعر معا. وقد تكونت شخصية الرافعي الأدبية خلال مرحلتين أساسيتين من حياته:

أ/ مرحلة ما قبل اتصاله بعالم الصحافة.

ب/ مرحلة ما بعد اتصاله بعالم الصحافة.

ولابد أن نشير في البداية كذلك إلى أثر الصمم المبكر الذي أصاب الرافعي والذي كان له دوره البارز في عزله عن عالم الناس. والعزلة التي نتكلم عنها تتعلق بدخوله عالم الأدب والشعر بدوواينه وكتابته، إذ لم يكن يلتفت في هذه المرحلة إلى مواقعها في أذهان المتلقين من القراء؛ ذلك أن كتاباته تميزت بالإبهام وصعوبة فهم أساليبها المعقدة، ومرد ذلك أنه كان يكتب في هذه المرحلة لنفسه، ثم ينشر ما يكتبه ولا يهتم بعد ذلك أن يفهم القراء ما يكتب أو لا، لأنه كان يرى أن القارئ هو الذي ينبغي عليه أن يرتقي بمستواه ليفهم أساليب العربية الرفيعة، ولا ينبغي أن ينزل الأديب إلى مستوى القراء متى كان مستواهم متواضعا، وبناء على هذه القناعة كان يربأ بنفسه أن ينزل بالكتابة العالية إلى مستوى أدنى نزولا عند مستويات عموم القراء، وقد جاءت هذه المرحلة من مراحل الكتابة عند الرافعي قبل أن يدخل عالم الصحافة.

ولما دخل عالم الصحافة واتصل ببعض الجرائد والمجلات، وشارك فيها بمقالاته، نشأت بينه وبين القراء صلة الأخذ والرد، وكان هذا سببا في تنازله عن ظاهرتي الإبهام والتعقيد، وإن لم يكن يقصد إليها قصدا. ومن مؤلفاته في مرحلة ما قبل العمل الصحفي:

- **حديث القمر** + ألفه في أدب الإنشاء تناول فيه موضوعات شتى، وكان هدفه من ذلك أن يحدث نموذجا بلاغيا للطلبة يقول: =أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي، الذي توضع أمثله، ولا توضع قواعده+، ويتهم الأدباء والكتاب الذين رموه باستغراق الأسلوب بالعجز البلاغي، يقول: =البلاغة التي حار العلماء في تعريفها على كثرة ما خلطوا، لا تعدو كلمتين: قوة التصوير، والقوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة+(1).

- **كتاب المساكين**: هو كتابه الثاني في أدب الإنشاء ألفه سنة 1917 في وقت كانت الحرب العالمية الأولى قد اشتعلت أوارها، تقذف بحمها فتصيب الأمم والشعوب في الأرواح والعمران. والكتاب فصول شتى ولكنه في عمومها يقدم صورا من آلام الإنسانية تلتقي عندها =أنة المريض وزفرة العاشق ودمعة الجائع وصرخة اللهفان المستغيث..+(2).

- **رسائل الأحران والسحاب الأحمر وأوراق الورد**: يصور فيها تعلقه بإحدى الأدبيات البارعات والتي كانت ملهمته في هذه الكتب.

- **تحت راية القرآن - تاريخ آداب العرب - على السفود**: وهي مصنفات أنشأها في بعض المطارحات النقدية والأدبية وهي تصور نظراته إلى بعض القضايا اللغوية والأدبية والتي كانت مثارا للجدل بينه وبين مجموعة من الكتاب آنذاك وعلى رأسهم طه حسين..

وحي القلم: (مرحلة ما بعد اتصاله بالعمل الصحفي):

=وحي القلم+ هو آخر ما ألف الرافعي في حياته الأدبية والفكرية: ولكنه - كما يقول صديقه محمد سعيد العريان - أول ما ينبغي أن يُقرأ. نشر الرافعي منه الجزأين الأولين، ثم أدركته المنية قبل أن يتم الثالث، فتولى صديقه وصهره محمد سعيد العريان جمع ما خلفه المؤلف على مكتبه من قصاصات في صحف وصفحات من كتب ومجلات وجعلها في كتاب هو الجزء الثالث من وحي القلم.

والكتاب هو مجموعة مقالات وفصول أنشأها في ظروف متباينة

(1) مصطفى صادق الرافعي، حديث القمر. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. طه، سنة 1982. ص:6.

(2) الرافعي، كتاب المساكين. دار الكتاب العربي، بيروت. طه، سنة: 1982. ص:44.

ومناسبات مختلفة بين سنتي: 1934 (تاريخ اتصاله بالعمل الصحفي من خلال مجلة الرسالة) وسنة 1937 وهو العام الذي توفي فيه رحمه الله.

=وحي القلم+ هو عمل أدبي متميز جمع بين القصة والمقالة والنقد، وهي أساليب متنوعة يعالج بها مواضيعه وقضاياها التي لا تخرج عن الثابت التالية: اللغة العربية ومقاصد الإسلام.. وهذا الكتاب يجمع خصائص الرافعي الأدبية والعقلية والنفسية متميزة بوضوح في أسلوبه، كما يجمع كل خصائصه العقلية بوضوح في موضوعه: ففيه خلقه ودينه، وفيه شبابه وعاطفته، وفيه تزمته ووقاره، وفيه فكاوته ومرحه، وفيه غضبه وسخطه، =فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفان الرأي والفكرة والمعاشرة فليعرفه في هذا الكتاب+(1).

النظام النحوي والبلاغي في صياغة الجمل والتراكيب في وحي القلم:
إن الجملة هي مجال العمل النحوي، ومجلى تحققه، ينظر في أركانها التي تتم بها، وفي عناصرها التي تجعلها مفيدة يحسن السكوت عليها، وما يطرأ على هذه العناصر في الجملة من عوارض فنية، ذكرها أو حذفها، تقديمها أو تأخيرها، تعريفها أو تكثيرها، وصلاً أو فصلاً، إلى غير ذلك من مجالات التعابير المختلفة، وما يرتبط بكل حالة من هذه الحالات من معان تقصد ودلالات تثري.

والعلماء السابقون - ومنهم علماء البلاغة - حينما يعرفون النحو يقرنون بينه وبين البلاغة والدلالة والمعنى، فالجرجاني يؤكد في دلائله أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس(2). وهو ما يؤكد السكاكي بقوله: =هو أن تتحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية، وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذلك..+(3).

بلاغة النحو أو نحو البلاغة في «وحي القلم»:

أ. براعة الرافعي في الربط بين التراكيب في الاصطلاح النحوي أو إحكامه لأساليب

(1) محمد سعيد العريان، مقدمة وحي القلم.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص 57.

(3) السكاكي، مفتاح العلوم. دار الكتب العلمية، بيروت. ط: 1، سنة 1983. ص: 75.

الفصل والوصل في الاصطلاح البلاغي:

هذا الباب جليل في علمي النحو والبلاغة على السواء: إذ لا يتنبه له إلا خاصة الخاصة من الكُتّاب والأدباء، يقول الجرجاني: =علم أنّ العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُصّ وإلا قوم طبعوا على البلاغة.+(1). ويستتكر على فريق من الناس يفتعون بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: أنّ هذا الكلام قد استؤنف، وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك، ولقد غفلوا غفلة شديدة(2)..

سنقدم فيما يلي نماذج من دقائق هذا الباب في وحي القلم على سبيل التمثيل لا الحصر:

يقول الرافعي: =وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميزة، تريد الحسنات وتعمل لها وتخشى السيئات وتتنفر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هو من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان لا يراد منه إلا سلام النفس في عاقبتها، وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها+(3).

هذه فقرة ابتدأت بجملة شرطية ضمت ركنيها الأساسيين: فعل الشرط (إذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس)/ ثم جاء بعدها جواب الشرط: (قام منها على النفس شرع نافذ) / ثم جمل فعلية (تريد الحسنات وتعمل لها وتخشى السيئات وتتنفر منها) وقعت وصفا لما قبلها وهو (الإرادة المميزة).

ومن خلال التحام فعل الشرط مع جوابه تتحقق سريعاً نتائج هي:

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 222.

(2) نفسه، ص151.

(3) وحي القلم. ج2، ص7.

- 1 - معاني الجسد يحكم بعضها بعضا..
 - 2 - نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان قد نهضت...
 - 3 - كل صغيرة وكبيرة في النفس هو من صاحبها مادة تهمة..
 - 4 - كل ما في الإنسان ...
 - 5 - معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف ...
- وأداة الربط بين هذه الفقرات هي (إذا) : وهي عند النحويين تفيد المفاجأة وتختص بالدخول على الجمل الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ومعناها الحال لا الاستقبال، قال بشأنها الإمام الأديب أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأديب الأندلسي (ت684هـ) في منظومته في النحو:
- والعرب قد تحذف الأخبار بعد إذا إذا عنت فجأة الأمر الذي
دهما
- وربما نصبوا للحال بعد إذا وربما رفعوا من بعدهم، ربما
فإن توالى ضميران اكتسى بهما وجه الحقيقة من إشكاله
غمما
- لذلك أعيت على الأفهام مسألة أهدت إلى سيبويه الحنف
والغمما(1)
- وإذا عند البلاغيين لما كانت تفيد المفاجأة فهي تدل على سرعة وقوع الأمر، وعدم التلبث أو وقوعه فجأة.
- وعند المزاجية بين =إذا+ النحوية و=إذا+ البلاغية فإن المعنى الحاصل أن الرافي يريد أن يقرر سرعة تأثير هذه المحكمة الملائكية على نفس الإنسان، ومن ثم على الإرادة ثم على كل سلوك يصدر منه، وهو يقصد بالمحكمة الإلهية: استشعار الإنسان الدائم بأن هناك ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار يسجلون عليه كل صغيرة وكبيرة، ومتى استشعر الإنسان هذا واستقر في نفسه فإن هذا الشعور يثمر بسرعة، وتتغير فجأة أمور كثيرة، والثمار المرجوة هي ما ذكره الكاتب بعد =إذا+..

(1) ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص: 123.

وفي القرآن الكريم نماذج عالية من هذه الأساليب منها قوله جل شأنه: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» (فصلت 34). ومنها قوله سبحانه: «قال ألقها يا موسى فلقاها فإذا هي حية تسعى» (طه 19، 20).

التقديم والتأخير:

أفرد أهل اللغة والنحو من قديم أبوابا خاصة للتقديم والتأخير في كتب النحو وكتب البلاغة، ويعللون لهذا الباب بما يترتب عن ذلك من لفتات دلالية لا تحصل في كلام عادي لا يفرق بينهما. يقول سيبويه: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهمّ وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يُهمّانهم ويعنيانهم..)(1).

ويتكلم عبد القاهر عن معايير الحسن والرداءة في النظم فيقول: «وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار.. مما ليس له أن يصنعه.. وإذا عرفت ذلك، فاعمد إلى ما توأصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر.. فأصاب في ذلك كلّهُ..»(2).

والذي يقرأ وحي القلم سيجد عناية كبيرة بهذه المسألة: مسألة التقديم والتأخير، تقديم الخبر على المبتدأ، أو المفعول على فاعله، والظرف على الفعل.. ويجد القارئ أنّ هذا التقديم والتأخير لم يرد عرضا، بل قصده الرافعي قصدا ليفيد في كل ذلك إفادة زائدة على المعنى الظاهر للنص.

يقول الرافعي: «على عتبة البنك نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد»(3).

وطبيعة هذا التركيب نحويا أنه يتشكل من الأجزاء التالية:

على عتبة البنك - نام - الغلام وأخته - يفترشان الرخام

(1) سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 34.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 84 - 85.

(3) وحي القلم، ج 1، ص 78.

ظرف مكان + فعل + فاعل + جملة حالية.

والركنان الأساسيان في هذه الجملة هما المسند والمسند إليه (أي الفعل والفاعل) وما سواهما فهما من المتممات (الفضلات). وأصل الظرف كسائر المتممات عند النحاة أن يرد متأخرا عن المسند والمسند إليه، يقول سيبويه: = ... إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلمة أخرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقرا تكتفي به فكلمة قدّمته كان أحسن...+(1). ويقول: = ... والتقديم وهنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسما في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير..+(2).

والتقديم عند البلاغيين على وجهين:

أ - = تقديم يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقرته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل... لم يخرج بالتقديم والتأخير عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك.

ب - وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه... أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ...+(3).

وبناء على ما سبق فإنّ التقديم في عبارة الرافعي جاء على نية التأخير، لأن الحكم الإعرابي لم يتغيّر.

نموذج آخر:

= **بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنّه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان..**

وبالقيام في الصلاة يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره..

(1) الكتاب، ج 1. ص: 56.

(2) نفسه، ص: 56.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص: 106.

وبالتولي شطر القبلة ... يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت..

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة+(1).

ومما يندرج ضمن هذا الباب ظاهرة أخرى يتميز بها الرافعي، ويرددها كثيرا في وحي القلم، وهي أنه كثيرا ما يجمع بين تركيبين، ثم يقدّم ويؤخّر في نفس كلمات العبارة السابقة ليقدم معنى مغايرا للمعنى الأول أو موافقا له. ويسمى هذا عند أهل اللغة (المقابلة والتوازي)، ويعرفه أبو هلال العسكري بقوله: =المقابلة: هي إيراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة. فأما ما كان في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل.. وأما ما كان منها بالألفاظ، فمثل قول عدي بن الرقاع:

ولقد ثنيتُ يد الفتاة وسادةً لي
جاعلا إحدى يدي وسادها+(2).

وأمثلة هذا النوع مستفيضة في وحي القلم ومنها:

=إياكم إياكم أن تغتروا بمعاني المرأة تحسبونها معاني الزوجة، وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها. فإنّ في كل زوجة امرأة ولكن ليس في كل امرأة زوجة..+(3).

وقد تغيرت المواقع الإعرابية في التركيبين: في إحداهما إخبار عن المرأة، وفي الأخرى: إخبار عن الزوجة، فالمرأة في التركيب الأول مسند إليه أصله مبتدأ وقع اسما لـ =إن+، بينما وقعت نفس الكلمة في التركيب الثاني مسندا مخبرا به. وإذا اختلفت الصفة الدلالية (الدور الدلالي) بين التركيبين من جهة اختلف المسند والمسند إليه، فإنها تختلف من جهة ثانية: وهي أن التركيب الأول وقع في موضع إثبات (إن في كلّ زوجة امرأة)، بينما وقع في التركيب الثاني في موضع نفي (ليس في كلّ امرأة زوجة). والركنان (في كل زوجة ليس في كل امرأة) هما مسندان في موضع الخبر، وتقديم الخبر تأكيد له وتحقيق له. ومن

(1) وحي القلم. ج 2. ص: 13.

(2) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين. ص: 337.

(3) وحي القلم. ج 1، ص: 251.

نماذج هذا الأسلوب:

= ... وإذا جاءني وقح خلق الله وجهه الحسن مسبة له، أو خلقه هو مسبة لوجهه القبيح..+(1).

= معنى يبكي، ومعنى يُبكي له+(2).

(الاستثناء): أسلوب الحصر والقصر

يعرف الاستثناء بأنه المخرج تحقيقاً أو تقديراً، من مذكور أو متروك، بإلا أو ما في معناها، بشرط حصول الفائدة(3). أو هو: المُخْرَج بـ=إلاّ أو إحدى أخواتها لما كان داخلاً في الحكم السابق عليها.

ومن معاني الاستثناء إفادة القصر. والقصر هو تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان.

والطريق الذي يسلكه الرافعي كثيراً هو الاستثناء بأداة النفي =ما+ أو =لا+ أو =ليس+ و=إلا+ أو =غير+ حتى غداً ذلك واضحاً في كتاباته جميعاً، ومن أمثلة ذلك:

= ليس العيد إلاّ إشعار هذه الأمة بأنّ فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأنّ الأيام تتغيّر...

وليس العيد للأمة إلا يوماً تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي...

وليس العيد إلاّ تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد...

وليس العيد إلاّ إظهار الذاتية الجميلة للشعب مهزوزة من نشاط الحياة..

وليس العيد إلاّ إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي...

وليس العيد إلاّ التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها...

وليس العيد إلاّ تعليم الأمة كيف تواجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت...+(4).

(1) نفسه، ج1، ص326.

(2) نفسه، ج2، ص141.

(3) ابن هشام، أوضح المسالك. ج2، ص249.

(4) وحي القلم: ج1، ص34، 35.

في هذه الفقرة عدول عن الأسلوب التقريري المباشر لأن أسلوب الاستثناء كما يقرر أبو هلال العسكري(1) يخدم المعنى من جهتين اثنتين: أ - أن تأتي معنى تريد توكيده وزيادة فيه فتستثني بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها..

ب - استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان عليه..

ويقول الجرجاني في هذا الشأن: =وأما الخبر بالنفي والإثبات.. فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه+(2).

والاستثناء عند السكاكي يسلك مع مخاطب تعتقد فيه أنه مخطئ وتراه يصرّ إما تحقيقاً، إذا أخرج الكلام على مقتضى الظاهر، وإما تقديرًا إذا أخرج لا على مقتضى الظاهر.. أو هو = طريق يسلك إنما يسلك مع مخاطب في مقام لا يصرّ على خطئه، أو يجب عليه أن لا يصرّ على خطئه.. + (3).

فإذا عرفنا هذا وتأمّلنا في الفقرات المقتضية من مقال الرافعي حول =المعنى السياسي في العيد+ فس نجد أنّ هذا الأديب كان يحيط بهذه المعاني الدقيقة والفروق اللغوية والدلالية ويحرص على حسن توظيفها. فهو حينما يثبت للقارئ هذه المعاني السياسية في العيد، كأننا به يخاطب من يجهلها، بل وينكرها وهي الفئة الغالبة من الناس في زمانه وفي غير زمانه، أو هو يقدمها لمن يعرف مسبقاً أنه سينكرها عليه، ولعلّ هذا الحس الذي أثبتناه للرافعي تدلّ عليه أشياء كثيرة منها:

أولاً ما يدلّ عليه السياق في بداية الكلام، إذ يقول: = ما أشدّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهما جديداً، نتلقاها به، ونأخذها من ناحيته، فتجيء أياماً سعيدة عاملة، تنبّه فينا أوصافها القوية، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحة عاملة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامه على النفاق..+(4).

أسلوب الالتفات:

- (1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين. ص 408.
- (2) الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص 332.
- (3) السكاكي، مفتاح العلوم. ص 294.
- (4) وحي القلم. ج 1، ص 34.

الالتفات: أن يكون المتكلم = أخذًا في معنى، وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادًا يردّ قوله، أو سائلًا يسأله عن سببه فيعود راجعًا إلى ما قدّمه، فإمّا أن يؤكّده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشكّ عنه..+(1).

ويحدّده ابن رشيق بقوله: =هو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك.. وسبيله أن يكون الشاعر أخذًا في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يختلّ في شيء مما يشد الأول..+(2).

والذي يميز أسلوب الالتفات عند الرافعي، أنّه كثيرًا ما يكون أخذًا في معنى، ثم يلتفت إلى القارئ فجأة ليسأله أو يطلب منه شيئًا، أو يحذّره، فينتقل بذلك من الكلام عن الرجل أو الطفل وأخته أو بنته، أو الربيع.. ليخاطب فجأة القارئ.

والذي يميز أسلوب الالتفات عنده أيضا أنه كثيرا ما يقف أمام مشهد أو قصة وقعت يكتب عنها، فإذا به (الرافعي) أحد أبطال المشهد أو أعضاء حضور الواقعة، فيحاور البطل أو يسأله، أو كذلك يخيل للقارئ.

نموذج أول:

=لن يكون الإسلام صحيحا تامًا حتى يجعل حامله مثلا من نبيّه في أخلاق الله، فما هو بشخص يضبط طبيعته.. ولكن طبيعة تضبط شخصها..

ولا يضطرب من شيء ..

ولا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟

ولا يخشى مخلوقا، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا في طبيعة مخالبك وأنيابك؟+(3).

نموذج ثان:

يتكلم الرافعي عن محنة فلسطين فيقول: = وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعب لم يتعود قط أن يقول: أنا.

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين. ص392.

(2) ابن رشيق القيرواني، العمدة. ج.2. ص45.

(3) وحي القلم. ج.2. ص17.

ولكن لماذا كنستم كل أمة من أرضها بمكنسة أيها اليهود؟(1)+.

والملاحظ أنّ الرافعي متأثر بالتقانات القرآن الكريم التي تمثل خاصة من خصائصه وميزة من ميزات أساليبه. ومن أمثلة الالتفات في القرآن قوله تعالى في سورة الفاتحة: × الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ÷ (الفاتحة: 1-4).

مشكلة الأساليب القرآنية وتضمن تراكيبه:

وهذه سمة أخرى بارزة في أدب الرافعي، يقتبس من القرآن الكريم أساليبه العالية، ويضمن تراكيبه، وهي طريقة توحى بأن الرافعي يتخذ هذا النمط من الكتابة طريقة للدفاع عن الجملة القرآنية التي تعرضت لهجوم أعداء الأساليب العربية الأصيلة. يقول الرافعي:

= فأقبل فمد خرطومه، فنالها به، فلفها فيه، فقبضه، وفرعه، فطوحها، فكأنما ذهب في السماء..+(2). فالملاحظ في هذه العبارة قصر الفواصل، وكل هذه الفواصل أفعال، وقد ربط بينها بحرف الفاء، وهو هنا يفيد الترتيب والتعقيب.. وفي القرآن الكريم ما يشبه هذا النسق، ومنه قوله تعالى: × ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة × فخلقنا المضغة عظما × فمسوننا العظام لحما × ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ÷ (المؤمنون: 14).

وفي موضع آخر يقول: =أنذرت الأرض أن تنمسك لا تدكها بجنبها+(3). وهذا على شاكلة قوله تعالى: × قالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ÷ (النمل: 18).

ويقول: =فسمعت الخنفساء تقول للأخرى وهي تحاورها..+(4). وذلك على شاكلة قوله تعالى: × قال له صاحبه وهو يحاوره ÷ (الكهف: 34).

ويقول كذلك: =أمنت أنه لا إله إلا الذي خلق البطة...+(5). على شاكلة قوله سبحانه: × حتى إذا أدركه الغرق قال أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل ÷ (يونس: 90).

(1) نفسه، ص41.

(2) وحى القلم، ج2، ص:266.

(3) نفسه، 226.

(4) نفسه، 228.

(5) نفسه، 229.

هذه عينات من أدب الرافعي من خلال كتابه وحي القلم، وسنتناول فيما يلي نماذج من مقالات البشير الإبراهيمي في عيون البصائر، وسيلاحظ القارئ أنّ الرجلين كأنما ينهلان من معين واحد.

مع البشير الإبراهيمي: صور التمازج بين النحو والبلاغة في مقالاته

مشكلة الأساليب القرآنية:

يقول الإبراهيمي: =ولقد اشتد شوق العالم الإصلاحى إلى جريدته، واتصل حنينه.. لأنه كان يرى فيها مددا من النصره.. وكان يرى من مقالاتها صواعق مرسلة على المبتدعة والظالمين..+(1). وهذا المعنى مأخوذ من قوله سبحانه: ×ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء÷الرعد:14.

ويقول: =جريدة البصائر هي إحدى الألسنة الأربعة الصامته لجمعية العلماء، تلك الألسنة التي كانت تفيض بالحكمة الإلهية.. والتي كانت ترمي بالشرر على المبطلين والمعطلين..+(2). وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: ×إنها ترمي بشرر كالمقصر كانه جملات صفر÷(المرسلات: 32 - 33).

ويقول: =فإن من بعض هذه المشاكل ما لو تهادى وامتد لأتى ببيان الأمة من القواعد، وقضى عليها بالمسخ أولاً، والتلاشي أخيراً+(3).

أخذاً من قوله تعالى: ×قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم÷ (النحل:26). ويقول: =كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبارين..+(4). والاعتباس القرآني واضح كذلك من سورة الكهف من قوله تعالى: ×كبرت كلمة تخرج من أفواههم÷.

البيان في أحلى صوره (التشبيه والكنائيات والاستعارات والمجازات):

تحت عنوان (لجنة فرانس - إسلام)، كتب الإبراهيمي يقول:

= كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة، فجاءت كل واحدة ناشزة عن صاحبته، نابية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، ولا يقبله الذوق العربي..+(5).

(1) عيون البصائر. ص:16.

(2) نفسه، ص:16.

(3) نفسه، ص:323.

(4) البصائر، ص:387.

(5) نفسه، ص:390.

=أدّ التحية عني للجزائر التي غذت وربّت، وأنبتت القوادم في الجناح، وأسلفت الأيدي البيضاء+(1).

ويقول: = وجاء هذا العيد ... والهوى في مراکش يأمر وينهى، والطغيان في الجزائر بلغ المنتهى، والكيد في تونس يسلط الأخ على أخيه، وينام ملء عينيه، والأيدي العابثة في ليبيا تمزق الأوصال، وتداوي الجروح بالقروح، وفرعون في مصر يحاول المحال، ويطاول في الأجال... هذه ممالك العروبة والإسلام، كثرت أسماؤها، وقلّ غناؤها..+(2).

البدیع في أحسن مواقعه (السجع والجناس والمحسنات):

يقول الإبراهيمي رحمه الله: = ثم ارجع البصر في الدنيا وقوانينها التي يسوسنا بها الاستعمار، تجد ذلك المعنى ل**انحاف** في كل حرف منها، **فأنحاف** من كل كلمة من كلماتها، **واضح** في كل تأويل من تأويلاتها..+(3).

ويقول: = حيّ الجزائر عني يا صبا... واحمل إليها مني سلاما تبارى لطافته لطافتك، وتساري إطاقته إطاقتك، فقديمًا حملك الكرام الأوفياء مثل هذه التحية إلى من يكرم عليهم، أو من يكرم عليهم، فحملتها **روحا**، وأديتها **بوحا** وأعلنتها شذى **وفوحا**..+(4).

ويقول: = أتمثله (الشباب الجزائري) **مقداما** على **العظام** في غير تهور، **محجما** عن **الصغار** في غير جبن، **مقدرا** موقع الرجل قبل الخطو، **جاعلا** أول الفكر آخر العمل+(5).

التقديم والتأخير:

يقول: = أيها الآباء يسّروا ولا تعسّروا، وقدّروا لهذه الحالة عواقبها... وإنهن يُجلن الآراء والأعين في مستعمرات من الشبان، أو في شبان من المستعمرات..+(6).

تناسق الفواصل:

تتميز كتابات الإبراهيمي بانسجام الفواصل وتناغم التراكيب، والمراد بالفواصل الأجزاء المشكّلة للفقرات من جمل وعبارات، والمراد

(1) نفسه، ص483.

(2) نفسه، ص547.

(3) نفسه، ص403.

(4) نفسه، ص482.

(5) نفسه، ص586.

(6) نفسه، ص326.

بالانسجام أن الكاتب يزوج بين تركيبين أو أكثر بحيث تتناغم الأصوات والمقاطع بين التركيب الأول والثاني والثالث وهكذا، وهو أسلوب متميز من أساليب القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك قوله متحدثا عن الطلاق:

=لهذه الملابس التي هي من مقتضيات الفطر السليمة، والطباع الرقيقة، شرعه الإسلام مقيدا بقيود فطرية حكيمة، وقیود شرعية قویمة+(1).

ويقول: =والزواج عقد بين قلبين، ووصل بين نفسين، ومزج بين روحين - وفي الأخير - تقريب بين جسمين..+(2).

الخاتمة:

يمثل أدب الرافعي وكتابات البشير الإبراهيمي نموذجين عمليين للأدب الرفيع الذي امتزجت في ثناياه أحكام النحو التي لا يصح الإخلال بها أو ببعض منها، بقوانين البلاغة التي تضبط المعاني الدقيقة وتميز بين صيغ التراكيب والجمل من حيث تباين الدلالة والثراء في المعاني من خلال مهارة الأديب في أساليب الكتابة تقديمًا وتأخيرًا، ذكرًا وحذفًا، إجمالًا وتفصيلًا، وصلًا أو فصلًا..

واتضح مما سبق عرضه من نماذج لكتابات الإبراهيمي والرافعي أنهما يمثلان النموذج الأمثل في حسن المزوجة بين الفنين: بين علم النحو وعلم البلاغة بطريقة فذة.

ويمكن أن نخلص في الأخير إلى التتويه بأهمية التناول الثنائي للفنين معا في تقديم درسي النحو والبلاغة للمتعلمين والناشئة وهي طريقة نعتقد أنها مثلى في تحبيب درس النحو والبلاغة وحسن استيعابهما.

المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - مصطفى صادق الرافعي:
أ - وحي القلم
ب - السحاب الأحمر
ج - كتاب المساكين
د - أوراق الورد

(1) البصائر: ص328.

(2) نفسه، ص328.

- ه - تاريخ آداب العرب
و - تحت راية القرآن
ز - على السفود
ح - رسائل الأحران
3 - البشير الإبراهيمي: عيون البصائر
4 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز.
5 - السكاكي، مفتاح العلوم.
6 - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب.
7 - سيبويه، الكتاب.
8 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين.
9 - ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك.
10 - ابن رشيق القيرواني، العمدة.